ولكى ندرك حالة الحرج الحضارية لدى أول صدمة تلقاها فى ميناء « مارسيليا » ومدى ما يعانى منه ويود تبريره دينيا ؛ نقف وقفة قصيرة عند وضعه ورفاقه فى « الحجر الصحى » أو «الكورينتينة» . يحكى الطهطاوى أنه ورفاقه احتجزوا فى بيت خارج مرسيليا معد للكرنتينة « على عادتهم من أنَّ من أتى من البلاد الغريبة لا بد أن يكرتن قبل أن يدخل المدينة » ويتساءل . هل الكرنتينة حلال أم حرام ؟ . هذه هى الروح التى وقف بها فى وجه كل محدث غربى أن يعرف موقعه من الحل أو التحريم حفاظاً على عقيدته . ولا يجد الجواب سريعا فيستدل بحوار فقيهين مغربيين حول الموضوع نفسه هما الشيخ « محمد المناعى » التونسى المالكى المدرس بجامع الزيتونة ، وقد حرَّم الكرنتينة بحجة أنها فرار من قضاء الله ، والشيخ « محمد بيرم » مفتى الحنفية صاحب كتاب « المنقول والمعقول » الذى أباح الكرنتينة ، بل قال بوجوبها . هذا ما كان يجول فى العقل الشرقى فى تلك الفترة عن إحدى مستجدات العصر الطبية الوقائية ، ويختار الطهطاوى أيسرها وأكثرها تمشياً مع روح العقيدة .

ويترك الطهطاوى هذه الزاوية الجدلية لينقل نمط الحياة الغربى فى أول صورة احتك بها فأدهشته : « أحضروا لنا نحو مائةَ كرسى لنجلس عليها لأن سكان هذه البلاد يستغربون جلوس